ديمتري غوتاس، الفكر اليوناني والثقافة العربية –حركة الترجمة اليونانية العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر، ترجمة وتقديم. نقولا زياده، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٣ .٣٦٤ص.....عرض سامر سيد قنديل

مؤلف هذا الكتاب هو ديمتري غوتاس الذي يعكس الكتاب أنه أمتلك القدرة على سبر أغوار حركة الترجمة العربيةــ اليونانية؛ وعلى إتقانه لعدد وافر من اللغات. هذا إلى جنب الإلمام بالأدبيات المتعلقة بموضوع بحثه، والأهم من ذلك الأدوات المنهجية التي عالج بها الإشكاليات التي واجهها.

أما عن الكتاب الذي نعرض له يقفز فيه المؤلف فوق القوالب الثابتة، ويعرض الكثير من البديهيات التاريخية التي ألفناها عن حركة الترجمة إلى العربية في العصر العباسي الأول إلى التحليل والنقد بل والهدم. فقد استخدم غوتاس مناهج متعددة من اجل إثبات وجهة نظره في دوافع حركة الترجمة وبواعثها، رابطا بينها وبين حركة المجتمع العباسي الاجتماعية والاقتصادية حتى خلص في النهاية إلى؛ أن هذه الحركة النشطة لم تكن بدافع سياسيا فقط، ولا بإرادة من الخليفة المأمون، الذي بدأت في عصره هذه الحركة تشهد انطلاقها؛ بل هي حركة أصعب من أن نعزوها إلى دافع واحد نظرا لتعقدها وتشابك خيوطها من حيث خلفياتها الأيديولوجية، وكذا من جهة تعدد الفئات التي دعمتها وأيدتها على مدى قرنين من الزمان.

قسم المؤلف دراسته إلى قسمين القسم الأول: يحتوي على أربعة فصول والقسم الثاني يحتوي على ثلاثة فصول ومقدمة وخاتمة. ففي المقدمة التي عنونها بـــ "حركة الترجمة اليونانية-العربية من حيث أنها ظاهرة اجتماعية وتاريخية"، يعرض فيها غوتاس إلي الأسباب التي دعته إلى إعادة النظر في الدراسات السابقة التي تناولت حركة الترجمة، ووضع يديه على نقاط الضعف فيها والتي تعطي المشروعية لبحثه، منطلقا من إيمان ثابت بأن هذه الحركة، التي تمثل إنجازا مذهلا، لا يمكن تفسيرها إلا على إنها ظاهرة اجتماعية امتدت على مدي ينوف عن القرنين، ولم تكن مشروعا خاصة بفئة معينة؛ بل ساندها خلال تلك الفترة نخبة المجتمع العباسي بكامله: الخلفاء والأمراء وموظفو الدولة والزعماء العسكريون والتجار والعلماء وأصحاب المصارف. هذا كله تم على أسس منهجية صارمة وضبط فيلولوجي دقيق. وعلى هذا الأساس يقرر غوتاس أن هذه الحركة انطلقت بسبب من حاجات في المجتمع العباسي الحديث على ما تنعكس في بنيته الإيديولوجية، ولا يمكننا الاستناد على النظريتين اللتين سادتا في تفسير نشأة حركة الترجمة، الأولى تدعي أن حركة الترجمة كانت نتيجة حماسة علمية لدى نفر من المسيحيين السريان الذين كانوا يجيدون اليونانية والعربية وقرروا أن يقوموا بترجمة كتب مختارة بدافع من العرب لتحسين المجتمع، أو لتعزيز موقع دينهم. أما النظرية الثانية: فتعزو حركة الترجمة إلى حكمة قلة من الحكام المتنورين وحرية تفكيرهم؛ تلك النظرية التي استخدمت لتفسير إيديولوجية نشأة النهضة الأوروبية أواخر العصور الوسطي.

في الفصل الأول الذي عنوانه " خلفية حركة الترجمة " عنى فيه المؤلف بإبراز الأهمية التاريخية والاقتصادية للفتوحات العربية، وما أفرزته من توحيد منطقة واسعة تمتد من أواسط آسيا إلى جبال البرانس، فيسرت التواصل والاتصال تجاريا وثقافيا "وبذلك مهدت للنباتات أن يتسع مداها وللأفكار أن يتحرر تنقلها"، هذا إلى جانب أن الازدهار الاقتصادي، الذي نتج عن هذه الفتوحات، أحدث وفره في رأس المال أمد حركة الترجمة بتمويل لا ينقطع ضخه، كما كان لحركة الفتوحات أهمية عملية في إدخال صناعة الورق إلى العالم الإسلامي الذي كان عاملا كبيرا في نشر المعرفة وتيسيرها. ولعل من ابرز نتائج الفتوحات – كما يرى غوتاس – أنها أزالت الحواجز ووحدت مناطق وشعوبا كانت قد وقعت تحت تأثير الهلينية لألف خلت من السنين منذ الإسكندر الأكبر، وأدت إلى عزل البيزنطيين سياسيا وجغرافيا، أي عزل المسيحيين الخلقيدونيين الناطقين باليونانية؛ هذا الأمر الذي كان له أهمية مزدوجة: أولا: لأن سياسات "الأرثوذكسية" القسطنطينية وممارساتها الإقصائية اللاهوتية كانت السبب في خلق الانشقاقات الكنسية التي أدت إلى شرذمة دينية للمسيحيين الناطقين بالسريانية، وكان للحكم الإسلامي الأثر الفعال في إزالة هذا المصدر للخلافات والتمزق الثقافي، ومن ثم توحيد الجميع بإمرة سيد محايد. والأهمية الثانية: هو أن عزل البيزنطيين أدى إلى حماية هذه الجماعات المسيحية من الانزلاق إلى العصور المظلمة والعداء لـــ "الهلينية" على نحو ما أصاب البيزنطيين في القرنين السابع والثامن الميلاديين. وفي هذا الفصل يناقش المؤلف أيضا؛ أن التوجه الثقافي للجماعات الناطقة باليونانية التي كانت تحيط بالأمويين هي المسيحية الأرثوذكسية اليونانية التي كانت القسطنطينية تحتضنها، والبيروقراطية البيزنطية الدمشقية لم يكن في وسعها إلا أن تحتذي النماذج الثقافية القائمة في القسطنطينية وتعكسها. وعند حلول القرن السابع الميلادي كانت هذه الثقافة البيزنطية قد أصبح موقفها من العلم اليوناني الوثني يمثل اللامبالاة الفاترة؛ إذ أنها خلفت ورائها دور المواجهة التي دمغت عصر آباء الكنيسة السابق، حيث كانت الهلينية العدو المهزوم الذي يجب أن ينظر إليه نظرة لامبالاة تتسم بالاحتقار. وفي هذا المناخ لم يتوقع أن تتم حركة ترجمة للكتب اليونانية العلمانية إلى العربية فلم يكن ينتظر من الأمويين أن يشجعوا مثل تلك الحركة؛ ولهذا فإن معظم الترجمات التي تمت في عصر الأمويين كانت في اغلبها تتعلق بمسائل إدارية وبيروقراطية وتجارية.

ويعرض المؤلف لعمليات الترجمة التي تمت في الفترة التي سبقت تولي العباسين مقاليد الحكم الإسلامي، والتي مهدت بدورها لحركة الترجمة العربية اليونانية؛ فقام السريان بعملية ترجمة من اليونانية إلى السريانية في القرن السادس الميلادي؛ خاصة أعمال سرجيوس الرشعيني (ت ٥٣٦م) الذي كان هو وبؤثيوس (ت٥٢٤ م) – في الغرب اللاتيني– بنويان القيام بمشروع ترجمة لكل أعمال أفلاطون وأرسطو؛ الأول إلى السريانية والثاني إلى اللاتينية مع تفسيرها، ولكن المشروعين لم يكتب لهما النجاح. في الوقت الذي كانت فيه الترجمات التي نقلت من اللغة السنسكرتية الهندية، وتمت عبر وساطة اللغة الفارسية (الفهلوية)، اغلبها في حقول الفلك والتنجيم والرياضيات والطب. ثم يأتي بعد ذلك دور الترجمات الفارسية التي كانت تعود بجذورها إلى

أيديولوجية زرواسترية ترى أن المعرفة جميعها تعود إلى الأفستا *Avesta*، كتاب الزرواسترية المقدس، والتي تقول الأسطورة الفارسية أن الإسكندر الأكبر كان قد أمر بترجمتها إلى اليونانية ثم قام بعد ذلك بحرق الأصول الفارسية لتلك الترجمات .

وفي الفصل الثاني يقدم لنا غوتاس عرضا سريعا للثورة العباسية والإيديولوجية السياسية التي قامت عليها الدولة. ويعود بنا إلى المؤسس الحقيقي للدولة العباسية أبو جعفر المنصور، الخليفة الذي أرسى دعائم الحكم العباسي بشقيه السياسي والثقافي؛ فقام برعاية حركة الترجمة مستندا إلى الإيديولوجية الساسانية، وقد لعب التنجيم دورا هاما فيها لأنه حقق وظيفتين حيويتين للعباسين الأولى: سياسية إذ أنها زودت سيادة الدولة العباسية على نحو ما رسخته النجوم، وبأمر من الله في النهاية، برسالة تتضمن إنذارا إلى جميع الخصوم المحتملين للحكم العباسي. والثانية: أيديولوجية إذ أنها أدخلت في روع القوم أن الدولة العباسية هي الوريث الشرعي الوحيد للإمبراطوريات القديمة في ارض الرافدين وإيران والساسانيين الأسلاف .

ومرة أخرى يلقى لنا غوتاس حجرا في الماء الراكد بشأن "بيت الحكمة" الذي أخضع المؤلف النصوص المصدرية الواردة بشأنه لتحليل عميق خلص منه؛ أن بيت الحكمة لا يعدو عن كونه مكتبة بلاط كانت إرثا ساسانيا ورثه العباسيون ومكانا مناسبا لحفظ الكتب النادرة، وإن كان قد أضيف إليه نشاطات متعلقة بالرياضيات والفلك في عصر المأمون، ولو كان قد ساهم بشيء في حركة الترجمة ففي الترجمة من الفارسية إلى العربية وليس من اليونانية؛ بيد أنه قد أتاح لحركة الترجمة بعامة الفرصة أن تكون مرغوب فيها ويسر لها أن تبلغ شأوها بنجاح. كذلك فقد استبعد غوتاس الآراء التي تقول بأنه كان أشبه بأكاديمية بحثية، أو ملتقى لاجتماع العلماء وإقامة المؤتمرات ؛ وان هذه الآراء قد أسقطت وضعا حاليا لم يكن في بيت الحكمة.

أما الفصل الثالث فيتطرق فيه المؤلف إلى عصر المهدي والبداية الحقيقة لحركة الترجمة، والتي تمت لتلبية احتياجات المجتمع العباسي الجديد، الذي ألقت به ثورته المناوئة للأمويين في أحضان خصوم خصومه من غير العرب الذين قامت على أكتافهم دولته. تلكم هم حلفاء الأمس الذين أصبحوا يمثلون تحديا أمام العنصر الإسلامي الذي رأى العباسيون إقامة دولتهم عليه، فكان على العباسيين أن يعملوا على أن يدخل الناس في دين اله أفواجا، كي يوطدوا مقولتهم، وهذه المحاولة من جانب العباسيين كان لها ما يربطها بحركة الترجمة في عصر المهدي الذي دخل في حوار ديني مع غير المسلمين استوجب معه أن يمتلك المحاور أسلحة المحاورة التي كانت بطبيعة الحال يونانية. وجاء ذلك متواكبا مع حركات "الردة والتزندق" التي ألقت بظلالها بشدة في هذا العصر، وحملت معها الأفكار المانوية وغيرها الموسومة بالصبغة الفارسية التي كانت تهدد كيان الدولة، ومن ثم أصبحت الحاجة ماسة إلى الأساس النظري في الجدل الذي يمكن المحاور من السير في سبيل المناظرات بقدمين ثابتتين لا تعرف الزلل؛ فكانت ترجمة "الجدل" لأرسطو (*Topics*) تلك الترجمة التي كانت بداية للمشروع برمته. ومن ناحية أخرى اقتضت الحاجة أيضا في خضم

الحوار المذهبي الداخلي مع بدايات ظهور علم الكلام، لاسيما أن المناقشات في هذا الإطار أخذت منحا كونيا، إلى ترجمة كتاب " الطبيعة " *Physics* لأرسطو.

أما عن الترجمة في عصر المأمون- وهو موضوع الفصل الرابع- فقد قدم لنا غوتاس رؤية أكثر جرأة وبعيدة كل البعد عن الإطار التقليدي الذي ألفناه ونجح في الربط بين السياسة الداخلية والخارجية للمأمون وحركة الترجمة؛ فعلى الجبهة الداخلية كان لزاما على المأمون – بعد حربه مع الأمين وقتله إياه- أن يسعى إلى إرساء دعائم المركزية العباسية في يده، فقد أخذ بالأيديولوجية الزرواسترية القائمة على مركزية الحكم واكتفى باستبدالها بالإسلام، وحاول أن يقيم أرستقراطية دينية لمجاراة الأرستقراطية السياسية الناشئة، مع اشتراط أن يكون لرأيه اليد العليا حتى في المسائل الدينية، على نحو ما جرى في منحة خلق القران، وقد أيدته حركة الترجمة في كلا الأمرين. وخارجيا: بإطلاق حرب شعواء على البيزنطيين على المستويين العسكري والدعائي. كان الغرض منها إظهار أن البيزنطيين، على الرغم من أنهم قد ورثوا حضارة اليونان، إلا أنهم لم يحافظوا عليها وأن على المسلمين أخذ مشعل الحضارة من اليونان لأنهم الأحق بها. وتظهر تلك الدعاية في أعمال الجاحظ؛ التي ميزت بين اليونانيين والبيزنطيين حتى يبدو في النهاية أن العقلاء هم المسلمون. وفى هذا المناخ المشجع بدأ العلماء والفلاسفة المسلمون خطاهم نحو اليونان وحكمتهم ليس هذا فقط ؛ بل نجد الكندي الفيلسوف العربي الذي حاول أن يقيم علاقة قرابة بين العرب واليونان باعتبار أن جد اليونانيين " يونان " هو أخو قحطان جد العرب.

ويخلص غوتاس من تحليله أن المأمون استبدل الأيديولوجية الزرواسترية الساسانية بالإسلام-العقلاني- المدعم بحكمة اليونانيين في مقابل المد الفارسي المتصاعد، وعلى ذلك يكون المأمون قد أفاد من حركة الترجمة بأن بني لنفسه أحقية في الحكم راسخة على أسس علمية لا يستطيع أن ينكرها أحد، ساعده في ذلك ثلة من العلماء الذين كان هذا التوجه على هوى منهم فأدركوا فائدته فدعموه بقوة وهيئوا البيئة المناسبة لهذا المشروع أن يكتمل.

وطبقا للتحليل السابق؛ فقد أخضع الباحث "حلم المأمون"- الذي رأى فيه أرسطو- للتحليل الدقيق وأظهر لنا أن هذا الحلم كان قد تمت ديباجته على يد الدوائر الألصق بالخليفة لتحيق أهداف المأمون التي تمكنه من القبض على مقاليد الأمور في الدولة، وتأسيس سلطته حتى في الأمور الشرعية والقبول بأولوية الرأي. ولقد لفقت الصيغة الأصلية للحلم لتبرير سياسة المأمون العقلانية والمؤيدة للمعتزلة، ومن ثم فإن الحلم الأرسطي من حيث وجوده لم يكن له علاقة بحركة الترجمة، فبدلا من أن الحلم باعثا لحركة الترجمة -على ما يرى ابن النديم أو مصدره يحي بن عدى وغيرهم من ساروا على دربهم؛ فإنه يشير على العكس من ذلك إلى الأثر الذي كانت حركة الترجمة، التي بدأت قبل عصر المأمون، قد تركته في البيئة المعرفية والثقافية التي أنتجتها. فالحلم هو النتيجة الاجتماعية لحركة الترجمة وليس مسببها.

وبعد أن طاف بنا المؤلف في أروقة ودهاليز بلاط الخلفاء العباسيين والأيديولوجية السياسية التي كانت تحكم فعلهم السياسي، والتي كانت توجهها ما تمليه عليهم التغيرات التي كان يمر بها

المجتمع العباسي آنذاك، يكون هذا ما أراد بحثه في القسم الأول من الكتاب حيث البواعث الحقيقة لحركة الترجمة. وفى القسم الثاني من الكتاب يتناول المؤلف عملية الترجمة ذاتها وتطوراتها الداخلية ورعاتها ودورها في ازدهار المجتمع الإسلامي، والعلاقة الجدلية بين التوجه الثقافي وحاجات المجتمع. ففي الفصل الخامس يتعرض غوتاس لموضوع " الترجمة في خدمة المعرفة التطبيقية والنظرية"؛ فيؤكد أن التوجهات الأيديولوجية والسياسية للعباسين في بداية حكمهم هي التي دعت إلى الحاجة إلى الترجمة في حقل التنجيم، فكانت ترجمة "الكتاب الأكبر" *Tetrabiblos* لبطليموس، وكتاب فاينومينا *Phaenomena* لأراتوس، وغيرها من المؤلفات التنجيمية التي ترجمت في تلك الفترة. وبالمثل كانت الحاجة إلى كتاب يعهد إليهم إدارة الدولة وما يتطلبه تكوين هذه الفئة من دراية بالعلوم الرياضية من حساب وهندسة وفلك، ومن ثم فلا عجب فقد استقطبت تلك العلوم النشاط المبكر في حركة الترجمة. أيضا كانت هناك حاجة إلى مشرعون في حقل الإرث، ومهندسون واقتصاديون لهم دراية بالمحاسبة ومسح الأرض والهندسة ومراقبة مواقيت العمل؛ كان لابد أيضا أن يمتلك أصحاب هذه الوظائف المعرفة الكاملة بالأعمال الرياضية والفلكية، فنجد أن كتاب "الأصول" لأقليدس قد ترجم ثلاث ترجمات أيام المنصور وهارون والمأمون على الترتيب. إلى جانب علم الجبر الذي تطور سريعا نتيجة لأهميته التطبيقية في مجالات الهندسة والري، وكوسيلة فعاله في حقل الإرث تساعد في حل كل التفاصيل المعقدة في هذا الفرع من العلوم الشرعية الذي كان في تطور دائم. وعلى هذا كانت الحاجة إلى تثقيف الكتاب، كانت منذ البداية الأولى، عاملا في التوسع التدريجي في حركة الترجمة. وفى مجال الكيمياء؛ كان لدى العباسيين أملا في تحويل المعادن إلى ذهب فكان الاهتمام بالترجمات في ذلك العلم.

ومن ناحية أخرى، كان هناك علماء على درجة كبيرة من العلم ضمتهم حدود الدولة الإسلامية؛ هؤلاء العلماء كانت لديهم الحماسة والدافعية العلمية نحو تطوير معارفهم، ساعدهم في ذلك دعم الدولة وتشجيع الخلفاء العباسيين لهم. ومن البديهي أن يعترض هؤلاء العلماء مشكلات علمية كان يتطلب حلها ترجمة المزيد من المؤلفات العلمية اليونانية في كل مجال على حده؛ أي أن الترجمة قد اكتسبت الدافعية الذاتية من النشاط العلمي الذي ساهمت هي في نشأته. ففي حقل الرياضيات نجد أن كتاب الحساب "أرثيماتيكا *Arithematica* لديوفنطس *Diophantus* قد ترجم بعد التطور الذي شهده علم الجبر على يد الخوارزمي. ومن زاوية أخرى؛ كان اهتمام الباحثين والحكام بترجمة كتب البصريات بسبب رغبتهم في استخدام المرايا الحارقة التي تقول الأسطورة بأن ارشيميدس كان قد أشعل النار في أسطول مارسلوس أثناء حصاره لسيراكوز، فكانت أن نبهت الرياضيين إلى إمكان القيام بذات العمل نفسه. أما في مجال الطب؛ فكان يتميز بوجود أسرات لها باع في هذا الفرع من العلوم الطبيعية كأسرة بنى بختيشوع؛ الذين عنوا بعملية التأليف الترجمة في هذا الحقل، وعهدوا لآخرين القيام بترجمات. ولا شك أنهم كانوا حريصين على المحافظة على تفوقهم العلمي الذي كان يكفل لهم مكانة اجتماعية مرموقة. وفي آخر المطاف تأتي الفلسفة التي لم تكن ذات طابع عملي مثل العلوم الأخرى، ولكنها حققت لنفسها شرعية وجودها وتطورها على يد

نفر من العلماء يأتي على رأسهم الكندي (ت حوالي ٢٥٧ هـ/ ٨٧٠ م) الذي عمل على أن يؤمن[1] الحصول على ترجمات للكتب الأساسية في الميتافيزيقا اليونانية، وفى مقدمتها كتاب الميتافيزيقا لأرسطو، ومختارات من بلوتينوس وبروكلس (*Plotinus/Proclus*) في مجموعتين عرفتا على التوالي باسم "علم الأشياء الإلهية" (*Theology of Aristotle*) و"الخير المحض" (*The Pure Good*).

وقد حظيت حركة الترجمة بقاعدة عريضة من التأييد في المجتمع العباسي؛ وكان أولئك الرعاة والداعمون فئات أربع: (١) الخلفاء العباسيون وأسرهم (٢) رجال البلاط (٣) موظفو الإدارة في الدولة والجيش (٤) الباحثون والعلماء. بالرغم من أن غوتاس كان قد عرض في القسم الأول من الكتاب لنقده لفكرة أن تكون حركة الترجمة قد تمت بإرادة من الخلفاء العباسيين كباعث وحيد؛ إلا انه لا ينكر دور الخلفاء العباسين المؤثر في دعم حركة الترجمة، مع الأخذ في الاعتبار دور الروايات المصدرية الدعائية لتعظيم دور بعض الخلفاء دون غيرهم، وبخاصة الخليفة المأمون الذي استمر بعده دعم خلفائه لحركة الترجمة، وإن كان هذا الدعم -لا بد وأنه- يتفق ايجابيا مع قوة ديوان الخليفة والسلطة الحقيقية التي كان يمارسها؛ تلك السلطة التي أصبحت ألعوبة في يد غير أيدي الخلفاء؛ فإنه على الرغم من انفصام عرى السلطة المركزية العباسية ومعها تقلص دور الخلفاء، فإن حركة الترجمة لم تنته مع بداية العصر العباسي الثاني؛ بل على العكس فقد بلغت الذروة في القرن العباسي الثاني بفضل الأعمال التي تمت على أيدي حنين بن اسحق و زملائه؛ بل لقد بلغت الحركة العلمية نضوجا ملحوظا في شتى المجالات تعدت به مرحلة الترجمة. وفى هذا المناخ العلمي الملائم ظلت رعاية الخلفاء وأسرهم لحركة الترجمة. ومما يذكر في هذا السياق أن؛ محظية المتوكل وأم أبنه، عهدت إلى حنين بن اسحق الكبير وضع كتاب المولودين لثمانية اشهر. وعلى جانب آخر كان رجال البلاط الذين كانوا يمثلون النخبة المتعلمة والندماء في البلاط العباسي؛ من أكثر الفئات التي شاركت في دعم ورعاية حركة الترجمة على اختلاف أصولهم ومواقعهم العلمية والاجتماعية. كذلك كان لرجال الدولة والحرب من الكتاب والوزراء وقادة الجيوش دور في رعاية حركة الترجمة ويذكر منهم: البرامكة والطاهريين، ونصارى العراق الذين اعتمد عليهم الخلفاء العباسيون في تولي المناصب الإدارية خلال القرن العباسي الثاني ومنهم أسرة وهب. هذا إلى جانب النصارى النساطرة ذوي الأصل الفارسي الذين تعربوا واعتنقوا الإسلام مثل بني الجراح، الذين علموا ككتاب في الدولة. كما كان العراق أيضا موطن الفيلسوف أبي بشر بن يونس مؤسس المدرسة الأرسطية في بغداد؛ كل هؤلاء شاركوا وساهموا في دعم ورعاية حركة الترجمة بشكل مباشر وغير مباشر.

والفئة الرابعة التي يناقش المؤلف دورها؛ هي طائفة الباحثين والعلماء، الذين كانوا أكثر الفئات الداعمة لحركة الترجمة إفادة من تأييد ودعم هذا المشروع. فنجد أن نخبة الأطباء النساطرة الذين قدموا من جنديسابور؛ وهم أسر بختيشوع وماسوي وتيفوري، قد تعهدوا بترجمة النصوص اليونانية الطبية وبخاصة أعمال جالينوس، وبالمثل لاقت العلوم الرياضية المترجمة اكبر تشجيع على يد أبناء الفلكي المشهور موسى بن شاكر. من هذا نستنتج أن الدعم لم يقتصر على مجموعات يمكن

تحديدها بوضوح؛ إن الداعمين جاءوا من جميع الفئات الإثنية والدينية: من ناطقين بالعربية والسريانية والفارسية ومن مسلمين ونصارى ووثنيين. ومن ثم فإنه يبدو على وجه الوضوح أن حركة الترجمة كانت نتاج جهد جماعي قامت به الأغلبية التي كانت بارزة اقتصاديا واجتماعيا _إن لم يكن المجتمع بكامله_ في بغداد خلال القرنين العباسيين الأولين. كل ذلك تم وتتطورت حركة الترجمة في تطور مواز مع الحركة العلمية التي احتضنتها، فأخذ كل طرف يساهم في تدعيم وتثبيت أقدام الطرف الأخر حتى أن أفادت حركة الترجمة نفسها من المناخ العلمي الحاضن لها؛ فقد تحسنت الترجمات مع الزمن بسبب من خبرة المترجمين وجودة معرفتهم باليونانية حتى أصبحوا على درجة كبيرة من الحرفية؛ بلغت معها تقنية الترجمة مستوى رفيعا من الدقة الفيلولوجية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. إن واحدا من الآراء التي ينقدها غوتاس هو؛ أن حركة الترجمة قد مرت بدورين رئيسيين: الأول "دور التلقي" مع بداية عصر المأمون والثاني هو "دور الإبداع" الذي تلاه؛ على أساس أن مركبات الترجمات وتعقيداتها تلغي حتى مجرد طرح السؤال على هذا النحو. وأن الدراسة المتعمقة لحركة الترجمة قد تعفي المرء من الانزلاق نحو التعميمات كتلك المتعلقة بالأصالة والإبداع في الفلسفة والعلم العربيين أو انعدامه عند العرب والساميين.

في فصل الدراسة الأخير يناقش غوتاس القضايا العامة التي أسس لها في دراسته حتى يستطيع أن يفصل في المسائل التي رآها هو خلافية، أو تلك التي لم يقبلها، بقدر مقبول من الدقة والموضوعية حتى يبتعد عن الأحكام السطحية والتعميمات. ويبدأ بأسباب توقف حركة الترجمة؛ ويعللها بأن الترجمات كانت قد أدت دورها في خلق المناخ العلمي المطلوب؛ وبعبارة أخرى فقد فقدت أهميتها الاجتماعية والعلمية؛ بحيث لم يكن هناك كتب يونانية علمانية صالحة لتقديمها بما يتلاءم مع اهتمامات ومطالب الرعاة والباحثين والعلماء على السواء. إن النصوص العلمية الأساسية، في أغلب الحقول، كانت قد ترجمت ودرست ووضعت لها الشروح، ولذا فإن كل فرع علمي كان قد تعدى مرحلة الترجمة وأصبحت الرغبة الملحة هي الحصول على مؤلفات عربية أصيلة لا ترجمات. ففي العصر البويهى بلغت حركة الترجمة النهاية لأن المشروع الفلسفي والعلمي الذي خلق الحاجة إليها كان قد استقل وأصبح له الشرعية في أن يكمل ما بدأه اليونان بل ويتعداه ويتفوق عليه، من وجهة نظر علمية؛ إذ أننا نجد صورة نقدية واضحة في المؤلفات العلمية العربية؛ ككتاب الرازي "الشكوك على جالينوس"، وكتاب بن الهيثم "الشكوك على بطليموس"، ويضاف إليهما كتاب بن سينا "الحكمة الشرقية" الذي كان يبين أوجة الخلاف بين بن سينا وأرسطو؛ أو ما يمكن تسميته "الشكوك على أرسطو".

بعد أن جاوب المؤلف عن السؤال المتعلق بنهاية حركة الترجمة، ينتقل بعد ذلك لمناقشة قضية أهم و اخطر، كانت حتى وقت قريب من المسلمات التاريخية، وحدث عليها شبه إجماع بين أوساط المتخصصين في الحضارة الإسلامية؛ وهي أسطورة المقاومة الإسلامية للعلوم اليونانية. قسم غوتاس رد الفعل لتدفق العلوم المترجمة إلى جهتين الأولى خارجية: جاءت من أتباع الأمويين، ويحلل هنا غوتاس رواية عبد الله بن أبي زيد القيرواني الفقيه المالكي ويوصفها بأنها رواية اعتذارية

للأسرة الأموية الفاشلة، ويعزو النبرة المعارضة للعلوم اليونانية فيها إلى ارتباطها بالعباسيين الذين يعتبروا، من وجهة نظر الأمويين، غير مؤهلين لتولى زعامة المجتمع الإسلامي ومن ثم فإن كل ما أتوا به لا يكون خيرا أبدا. ومن ناحية رد الفعل الداخلي: ينظر المؤلف نظرة فاحصة إلى تنوع المجتمع العباسي وتنازع أيديولوجيات فئاته وممارساتها، ويؤكد على أنها لا يمكن أن توصف بـ "العقائدية" بالمعنى العام والشامل للكلمة، والقول بأن هذه "العقائدية" هي التي شنت الحرب على العلوم اليونانية. ويعود بنا إلى عصر المأمون، وهو العصر الذي بدأت تتشكل فيه التيارات الفكرية الرئيسية وبداية علم الكلام والمحنة التي كانت السبب في تكوين تيار فكري قاوم النظرة الدينية التي فرضها الاعتزال في مسألة خلق القرآن، وجعلت من الإمام احمد بن حنبل شهيدا، الأمر الذي جعله المركز للمعارضين لتيار الاعتزال. على أن الاستقطاب الذي خلفته مسألة المحنة لم يكن يوما أصوليا من الأساس. وإذا كان قد حدث أن صدر مرسوم، كالذي صدر في أواخر حكم المعتمد، بعدم ممارسة التنجيم، أو تداول كتب الفلسفة والجدل؛ فان هذه الحادثة لا يمكن تحليلها إلا في إطار ظروفها التاريخية المرتبطة بها. كذلك كان رد الفعل المناهض لليونان في أحد صوره انتصارا للعنصر العربي الإسلامي، للتعظيم من شأن العرب في مقابل الحركة الشعوبية التي كانت قد وصلت إلى الذروة في هذا العصر.

بعد ذلك يناقش غوتاس الدراسة التي كانت أحد الأدبيات الثقة التي يعتمد عليها في دراسة المقاومة الإسلامية للعلم والعقلانية؛ وهي دراسة جولدتسيهر والتي نشرت بالألمانية لأول مرة عام ١٩١٦م، بعنوان "العقيدة الإسلامية القديمة في مقابل العلوم القديمة" وقد ترجمت إلى الإنجليزية عام ١٩٨١م، بعنوان أكثر إثارة وتضليلا "موقف العقيدة الإسلامية من العلوم القديمة" وقد وجه غوتاس نقدين إلى هذه المقالة الأول: يتعلق بتعيين العقائدية الإسلامية المقصودة في الدراسة وهويتها من حيث كونها "العقيدة القويمة القديمة *Old Islamic Orthodoxy*". والثاني: تحديدها بالقديمة؛ وهذا يجلعنا نسلم بوجود عقيدة جديدة لا تعارض العلوم القديمة. ويفسر غوتاس ذلك بانحياز جولدتسيهر السياسي، على اعتبار أن اغلب الذين قاوموا العلم العقلي كانوا من الحنابلة الذين يمثلهم ، عام ١٩١٦م، الوهابيون في الحجاز.

إن الملاحظة الجديرة بالتعيين التي ذكرها غوتاس تتعلق بالدراسة التاريخية المتأنية للعوامل الخارجية التي أفضت إلى ظهور التيار الأشعري على التيارات الأخرى؛ وهى الأخطار التي كان يتعرض لها العالم الإسلامي من المغول والصليبيين.

وفي خاتمة دراسته يؤكد غوتاس على الأتي: أولا؛ أن "الترجمة هي دوما نشاط ثقافي إبداعي فهو يتساوى مع وضع كتب أصيلة، فالقرار بترجمة شيء ما وتقرير الوقت الذي يترجم فيه وكيف يتم ذلك وتقبل الشيء المترجم؛ كل هذا تقره الثقافة المتلقية، ولذا فإن حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية ترمز إلى لحظات إبداعية في الفكر العربي الإسلامي، كما ترمز ترجمة جلان *Galland* الفرنسية لألف ليلة وليلة، أو ترجمة فيتزجيرالد *Fitz Gerald* الإنجليزية لرباعيات عمر الخيام؛ إلى لحظات إبداعية في الأدبين الفرنسي والإنجليزي".

ثانيا: أنه لا مجال للقول بتفرد لثقافة ما أو لأمة بعينها في الإبداع العقلي والعلمي "فإن جميع الثقافات متشابكة الواحدة مع الأخرى، ولا وجود لثقافة متفردة ومصفاة. جمبعها هجينية ومتباعدة الخواص إلى حد بعيد ومجزأة". وتلك المقولة استعارها غوتاس من ادوارد سعيد في بداية كتابه. ثالثا: أن قيام أبو جعفر المنصور بتأسيس بغداد في هذا المحيط الجديد لم يكن عبسا؛ بل بتخطيط يحقق للعباسيين مأربهم السياسية ويعطى لدولتهم البقاء والاستمرار؛ بعيدا عن النزاعات القبلية التي أغرق فيها الأمويين أنفسهم، إلى مجتمع جديد متنوع ومتمايز عقائديا وعرقيا وفكريا، ولكن العباسيين استفادوا من وجود هذه الأيديولوجيات المختلفة بحيث أصبحت الأسرة العباسية هي الفئة الوحيدة المسيطرة في بغداد. رابعا: أن رد الفعل لحركة الترجمة لم يكن مطلقا عقائديا بالمعنى الدقيق للكلمة؛ بل لكل حالة على حدي ما يفسرها على أسس أيديولوجية (سياسية واقتصادية واجتماعية). وأخيرا: فإن أهمية حركة الترجمة ـالتاريخيةـ تكمن في أنها؛ أوضحت. وللمرة الأولى في التاريخ، أن الفكر العلمي والفلسفي شأن عالمي لا يرتبط بلغة أو ثقافة خاصة. وأن لهذه الحركة دورها الأصيل في انبعاث حركة الإنسانية البيزنطية في القرن العاشر والنيضة الأوروبية في القرن الثاني عشر الميلادي.